

مراجعات كتب

Samir Khalaf and John Gagnon

Sexuality in the Arab World

(London: Al-Saqi Books, 2006). 312 p.

الجنس في العالم العربي

كمال ديب

باحث وأكاديمي.

نهاية تحريم البحث العلمي في الجنس عند العرب (*)

من المحرّمات. ومع صدور كتاب آخر في الحقبة نفسها، هو الحب الممنوع: المثلية والسحاقية في العالم العربي، بقلم برايان ويتاكر، يكون منحى نشر هذا النوع من الكتب الأكاديمية قد بدأ يأخذ طريقه.

أهمية كتاب الجنس في العالم العربي أنه يطرح حقلاً لا يلقى الاهتمام الأكاديمي الكافي، سواء أكان في الوطن العربي، أم في جامعات الغرب. يضم الكتاب مجموعة دراسات متخصصة جمعها وحققها سمير خلف، بروفيسور في الجامعة الأميركية في بيروت، وجون غانيون، بروفيسور في جامعة ولاية نيويورك – ستوني بروك. ويُعتبر خلف رائداً في دراسات علم الاجتماع في لبنان، كما يُعتبر غانيون رائداً في بحوث شؤون الجنس، وخصوصاً في الدول النامية التي خضعت لمراحل كولونيالية.

أما فصول الكتاب، فعددها ١١،

هل بدأ فعلاً وضعُ ثلاثي السياسة والدين والجنس – المحرّمات الثلاثة في الثقافة اللبنانية والعربية المعاصرة – تحت مجهر البحث العلمي؟ في مجتمعات كثر فيها الدين، وقلت الممارسات الديمقراطية الصحيحة، وغلب الكبت الجنسي على علاقات الأفراد؛ هل يمكن القول إن الإنسان اللبناني والعربي في طريق التحرّر؟ هل تعالج البرامج والمسلسلات التلفزيونية هذه المواضيع؟ هل نقرأ المقالات والدراسات حولها في المطبوعات الواسعة الانتشار؟ هل ثمة برامج اجتماعية حكومية وغيرها تُعنى بهذه المسائل؟

نشر كتاب الجنس في العالم العربي باللغة الإنكليزية هو حدث في ذاته، لأن لا شيء يثير ردود الفعل والاهتمام في هذا المكان مثل ثلاثي السياسة والدين والجنس، حيث تبقى المناقشة العامة العلنية للجنس وتفرعاته

(*) نشرت هذه المراجعة في: النهار، ٢٠٠٨/١/٤.

الدراسات التي يضمها الكتاب ميدانية فعلية، تعالج أوجه الحياة الجنسية في بلدان عربية مختلفة، ومن ضمن أحداث تاريخية ومشكلات اجتماعية محددة في المجتمعات العربية. وعلى سبيل المثال، يعالج أحد الفصول مسألة الجندر والجنس في بيروت في العام ١٨٦٠، عشية انتهاء الحرب الأهلية في الجبل، ودخول القوات الفرنسية إلى لبنان، وكيف أن المهاجرين اللبنانيين الأوائل إلى أمريكا، حافظوا على عذرية جنسية هناك، وأظهروا رغبة في الزواج من «بنات البلاد»، أي من امرأة من وطنهم الأم.

الحياة الجنسية للمرأة العربية بحثها أربعة مُسهمين في الكتاب. فمثلاً، ظاهرة استعمال المرأة لعفافها كإسما اجتماعي في الطبقة الوسطى السورية، درستها كريستا سلمندر، في فصل عنونته «رأس المال العفاف: التراتبية والتميز في دمشق». أما مسائل جسد المرأة والفانتازيا والعنف في الروايات اللبنانية، التي ظهرت في حقبة ما بعد الحرب، ومسائل الإيروتيك في الشعر العربي المعاصر والنتاج الأدبي العربي الحديث؛ فقد عالجهما الأكاديميان أسعد خيرالله وماهر جرار. ويدرس راي جريديني مسائل جنسية تتعلق بسكن المرأة غير العربية في منزل عربي. ويتحدث كذلك عن خادמות البيوت في لبنان، اللواتي يستعبدن مستخدموهن كسلع للجنس، فيما يعتدي الشبان من أبناء العائلات الميسورة جنسياً على الخادومات الأجنبيات، لأنه اعتداء مأمون العواقب. أما إذا انكشف الأمر، أو تعرضت الخادمة للحمل؛ فهي وحدها تلقى العقاب والطرده، لأنها غررت «بابن عيلة».

وتشكل قسماً من مجموع الأوراق التي قدمها مؤلفوها في مؤتمر عُقد في بيروت في كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٣، تحت عنوان «الجنس في الشرق الأوسط».

يقدم خلف وجهة نظر تقضي بضرورة فسح المجال أمام هذا النوع من البحوث في الوطن العربي، خصوصاً أن القليل من المادة البحثية قد صدر حتى اليوم؛ رغم المقالات في الصحف اليومية، ومساعي لجان حقوق الإنسان وجمعيات حقوق المرأة والعاملين في شؤون الصحة العامة والطب، ورغم برامج التوعية التي يقوم بها المجتمع المدني وبعض المتنورين من العاملين في القطاع العام في الوطن العربي من وزراء ومسؤولين.

يقول خلف: «يبقى موضوع الجنس «تابو» ولغزاً لا يوضع على بساط البحث في البيئة الثقافية العربية». وفي فصله الافتتاحي تحت عنوان «العيش مع كود الجنس المكتوم»، يشير إلى تراجع قضية الانفتاح الذهني على موضوع الجنس في الوطن العربي، ويضيف أن النقاش العام في هذا الموضوع الحساس أصبح مبهماً ويثير القلق.

أما غانيون، فقد عنون فصله بعنوان «دول، ثقافات، مستعمرات وعولة: البحث العلمي حول الجنس». ويقول إن البحث في الجنس قد انطلق أساساً في الولايات المتحدة. ولكن حتى في أمريكا، فإن أي سياسة حكومية حول هذا الموضوع، حتى لو كان هدفها معالجة مرض الإيدز، تصبح حقل ألغام سياسياً ودينياً. ويعرض غانيون مراحل تطور البحث الجنسي منذ الستينيات من القرن العشرين وحتى نهاية القرن.

مادة الأدب الإنكليزي، الذي تُعلّمه خلف.

يكتسب الكتاب قوّته من خلال جهد الباحثين النوعي لإطلاق الصوت حول القلق المجتمعي والثقافي في قضايا الجنس في البلدان العربية، حيث يستمر الكبت الاجتماعي والسياسي. وحتى مسألة المثلية (العلاقة الجنسية بين شخصين من جنس واحد)، والتي تتعرض دائماً للإغفال، أو التظاهر العام بأنها غير موجودة، فهي تلقى بحثاً دقيقاً في فصل بقلم سفيان ميرابت من جامعة كولومبيا، وغارد مكورميك من الجامعة الأميركية في بيروت. وفي هذا الفصل، معلومات عن تغير الحياة الذكورية في لبنان، وربما تراجعها، مع نمو حريات المرأة، وتشجّع المثليين الذكور على الظهور العلني، رغم أن هذا الظهور ما زال في بداياته؛ كما أن في هذا الفصل معلومات عن التبدلات التي ظهرت في مجتمع الشباب في بيروت ما بعد الحرب الأهلية. غير أن هذا الفصل لا يشرح مثلاً لماذا لم تكتسح المرأة اللبنانية ميدان العمل السياسي بعد، إذا كانت نسبة التحزّب إلى تحسّن، ولماذا لا يزيد عدد النساء في مجلس النواب على عدد أصابع اليد الواحدة، في حين بلغ الثلث في عدد من الدول العربية. وقس على ذلك شبه غياب للمرأة عن مجلس الوزراء اللبناني، وعن القيادات السياسية في البلاد.

يبقى الكتاب في دائرة البحث المحترم، إذ إنه لا يستجدي الفرائز باتباع أسلوب فضائحي في طرح المواضيع، أو في عرض الحياة الجنسية لدى العرب في مضاجعهم الخاصة في شكل مثير. فهو كتاب لا يمكن استعماله كجزء من حملة

يشير الكتاب بنظرة ثاقبة إلى الانفصام الثقافي الذي يصيب المراهقين العرب، في حياتهم العادية في مجتمع تقليدي، بتعرضهم للثقافة الاستهلاكية الغربية المشبعة بالحرية الجنسية. وتبحث أنجيل فوستر ظاهرة اعتناء المرأة التونسية بجسدها ومظهرها الخارجي، وعلاقة ذلك بحياتها الجنسية، من خلال بحث ميداني عن فتاة تدعى إلهام، تبذل جهداً كبيراً لتتماشى مع المقاييس المطلوبة، من خلال التنحيف، واختيار الملابس الأوروبية، والماكياج، وتسريحة الشعر، والسلوك.

وترى فوستر أن الفتاة التونسية تتعرض لنوعين من الضغوط الاجتماعية: ضغط زميلاتها وبنات سنّها في المجتمع التونسي، كمسألة التنحيف والجسد المشوق ومقاييس الجمال الصارمة التي تتبعها المرأة الأوروبية؛ وضغط ذويها والمجتمع التقليدي الذي يتطلب زيادة الوزن واكتناز الجسد تمهيداً للزواج، حيث يرى المجتمع التقليدي أن التنحيف يظهر الفتاة صغيرة السن، فلا يقبل عليها طالبو الزواج. وهذا يطبق أيضاً على المجتمع المصري، حيث تزداد شعبية الممثلة السينمائية عندما يكتنز جسدها.

ولا تنجو طالبات الجامعة الأميركية في بيروت من هذين الضغطين المتعارضين، رغم البيئة الليبرالية المتسامحة التي يتمتع بها طلاب هذه الجامعة. ففي فصل عنوانه «كسر الصمت: آراء طلاب الجامعة الأميركية في بيروت حول الجنس»، تعالج روزان خلف آراء طالباتها في الحب والعلاقة الجنسية في حياتهن، من خلال نصوص كتبتها في

عادة في شؤون لا علاقة لها بها، ويكون دافعها الأساسي السعي إلى الجنس عبر الزواج أو العلاقات الحميمة؛ كما تدخل في غيرها من النشاطات التي قد تكون بريئة وسامية، كأن يختار الرجل، من دون أن يدري أحياناً، امرأة جميلة سحرته، على حساب امرأة أخرى أقل جمالاً، وتحمل مؤهلات علمية أفضل.

وهكذا، يحدد سمير خلف في فصله التمهيدي، أن أساس الجنس هو عملية جدل دائم داخل بنية القوى المجتمعية التي تضم أفراداً في أوضاع اجتماعية واقتصادية وثقافية مختلفة، ينخرطون في «مفاوضة» دائمة ويومية وتنافسية حول العلاقات الجنسية. وما يجعل هذا التفاوض (التنافس) مُهمّاً، وخصوصاً في البيئة العربية، أن الكل يتظاهر بأن الجنس ليس أساس هذه الحرب غير المعلنة. ومثال ذلك، أن هذا المجتمع يطلب من الفتاة العربية أن تكون مثيرة جنسياً، من دون أن تكون نشطة! يمكنهن أن يظهرن بمظهر «قطة الجنس الملتهبة» - وفق تعبير الكاتب نفسه - ولكنهن ممنوعات من لعب هذا الدور. فالفتاة العربية مثيرة في الفيديو كليب، وتظهر قَدراً من التعري، ولكنها وطنية وتمارس الشعائر الدينية... إلخ، وستصبح أمّاً وزوجة وفق التقاليد. وهناك أدوار مشابهة، ولكن معاكسة، يقوم بها الشاب العربي. وهكذا، يعيش الطرفان في نوع من النفاق الباطن، ليس بين الفتيات والشبان فحسب بل بين الأجيال، أي بين الأبناء والآباء. وفي خضم الآراء المتنافسة والمتضاربة، يعجب المرء من يمنح «ملكة» الجنس، هل هو الفرد الذي يتسامح أم يعترض، أم المجتمع المحافظ على الأصول

معادية للعرب، بل يحترم الجمهور العربي الذي يكتب عنه، ويتوجه باللغة الإنكليزية إلى القارئ الأجنبي؛ ولذلك، يمكن استعماله كنص أكاديمي في جامعات الدول العربية.

ولكن من سلبيات الكتاب أنه لا يشدّب الأسلوب الأكاديمي الجاف لبعض الفصول بما فيه الكفاية. لقد كان شأننا حسناً أن يتعب أصحاب الدراسات في عرض عضلاتهم في المنهاج البحثي، بما يصلح لمؤتمر علمي يجبر المحاضرين على الدفاع عن محاضراتهم؛ ولكن ذلك يصبح أقل قبولاً لدى الجمهور الأوسع من القراء، خصوصاً من غير الاختصاصيين، الذين يسعون إلى التعرف إلى الموضوع، ويثقون بأن الباحثين احترمو أساليب البحث، دون أن يتوسع الباحثون في شرح هذه الأساليب. ورغم هذه الناقصة، فإن الفصول التي يضمها الكتاب جديرة بالقراءة ولا تُشعر القارئ بالملل، خصوصاً أن كتاب الدراسات تطرقوا إلى شؤون تاريخية وأدبية وثقافية مهمة تؤطر موضوع الجنس. والناقصة الثانية في الكتاب أن العدد الأكبر من الفصول كان عن لبنان، وقلة عن دول أخرى. وكان الأحرى أن يكون عنوان الكتاب: «الجنس في لبنان»، أو ما شابه ذلك.

وإذ يسأل القارئ: وما مقومات الحياة الجنسية لدى العرب إذا؟ يأتيه الجواب بأن الجنس لا يعني الناحية الجسدية الساعية إلى الفعل، ولا تعني الذكورة (الرجولة) ولا الأنوثة. فالحياة الجنسية تمتد في النسيج الاجتماعي النفسي اليومي والدائم لدى البشر، وتدخل

والتقاليد، أم الدولة التي تلعب دوراً سلبياً في معظم الأحيان؟ وما الذي يحدد الهوية الجنسية، وإلى أي حد يمتلك الفرد حياته الجنسية عندما يدفعه من حوله إلى الزواج أو المساكنة، أو العفاف الدائم... إلخ.

ولا يتطرق الكتاب إلى تجارة الدعارة المزدهرة في عدد من الأقطار العربية، أو يمارسها بعض العرب في دول

أجنبية آسيوية وأوروبية، وأخبار هذه المغامرات تصل إلى صفحات المجلات والجرائد الأجنبية التي تريد دائماً تشويه سمعة الرجال العرب بأنهم شرهون جنسياً، وينفقون أموالاً طائلة على أمور اللذة. ولكن غياب هذا الموضوع ليس ناقصة في الكتاب، بل هو اقتراح لمواضيع إضافية في المستقبل، إذ لا يمكن أن يغطي كتاب واحد كل شؤون الجنس عند العرب □

صدر حديثاً عن المنظمة العربية لمكافحة الفساد

البنية الاقتصادية

في الأقطار العربية وأخلاقيات المجتمع

الحلقة النقاشية التي أقامتها

المنظمة العربية لمكافحة الفساد



يضم هذا الكتاب بين دفتيه الوقائع الكاملة للحلقة النقاشية حول: «البنية الاقتصادية في الأقطار العربية وأخلاقيات المجتمع» التي أقامتها المنظمة العربية لمكافحة الفساد. وقد شارك في هذه الحلقة عدد من المفكرين والناشطين السياسيين والمهتمين بالشأن العام، واقتصاديون من عدة أقطار عربية.

وقد أرادت المنظمة العربية لمكافحة الفساد من خلال هذه الحلقة النقاشية تسليط الضوء على نمط التنظيم الاقتصادي للمجتمع، والاتجاهات التي تتحكم في مسار تطوره من جهة، وبين قدرة المجتمع المحافظة على قيمه المجتمعية من جهة أخرى.

وتأمل المنظمة من نشر هذا الكتاب، إثارة النقاش العلمي والموضوعي حول التحولات الاقتصادية التي تجري في أقطارنا، وتأثير محصلة ذلك في البنية الاجتماعية، بما في ذلك التغيير الناتج في القيم وثقافة العمل والإنتاج.

٢٠٦ صفحات

الثمن: ٧ دولارات

أو ما يعادلها